

## حوار حول العرب والالمان

بوش يعيد انتاج دور الامبراطور غليوم وهتلر بديكور امريكي

الاسلام اصبح ركنا اساسيا في السياسية الالمانية خلال القرن التاسع عشر

المانيا تفتح سبعين مركزاً اعلاميا لتحريض المسلمين ضد الحلفاء

الاسلام كان مستهدفا في القرنين التاسع عشر والعشرين وما زال كذلك

حاورته لـ اللواء - كلود ابو شقرا

تكن مشكلة العرب الرئيسة في القرن الحادي والعشرين، كما في القرن التاسع عشر والعشرين وقبلهما في عقدة المؤامرة التي كان ولا يزال الخارج أي الغرب ينسجها ضدهم، مع فارق بسيط هو تغيير الاسماء والدول .

هذا الاستنساخ أطلقه الدكتور عبد الرؤوف سنو (دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر في جامعة برلين، وأحد الدراسين القلائل في العالم العربي للمصالح الألمانية في الشرق، وللعلاقات السياسية والاقتصادية بين المانيا والاسلام في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ولغاية 1945)، وأكد من خلال تعمقه في دراسة الأرشيف الالمانى في تلك الحقبة، أن العرب اتكلوا دائما على التحالفات الخارجية للتخلص من الاستعمار (سواء الاحتلال العثماني أو الانتداب الفرنسي أو الانكليزي)، لذلك كانوا ينتقلون من اوضاع سيئة الى اخرى أسوأ، وأكبر دليل على ذلك ان تحالفهم مع الالمان سواء قبل الحرب العالمية الاولى وأثناء الحرب العالمية الثانية ورهانهم عليهم بأنهم «المنقذ» من براثن الاستعمار، كان خطأ وأدى في الأولى الى وقوعهم تحت الانتداب، وفي الثانية الى هجرة اليهود الى فلسطين وقيام دولة اسرائيل، التي لم تكن لترى النور، على حد قول المؤرخين اليهود انفسهم، لولا اضطهاد هتلر لهم ودفعهم الى الهجرة بالقوة الى فلسطين .

من خلال قراءته للتاريخ الذي ساهه الاستعمار والاطماع الغربية بالنفط وبغنى هذه المنطقة في العالم، اعتبر د. سنو أن التماسك وحده داخل المجتمعات العربية، هو الكفيل بمقاومة الاطماع الغربية الاستعمارية وليس الاتكال على دولة ما للتخلص من الاحتلال كما كان يحصل ولا يزال الى اليوم .

وأشار الى ان التنمية البشرية وبناء المؤسسات التي تؤسس للديموقراطية، هما وحدهما الكفيلين بحصانة المجتمعات العربية في الغزو الذي اتخذ بعد احداث الحادي عشر من ايلول 2001، سمة محاربة الارهاب، والدفاع عن الديموقراطية، وحماية الاقليات في

الشرق بحجة أنها مضطهدة في الاكثريّة الاسلاميّة .

في محاولة منها لاشرف أبعاد الأحداث المتعاقبة بسرعة في العالم العربي والإسلامي منذ بداية الألفية الثالثة، عاودت «اللواء» قراءة العلاقات الألمانية - الإسلامية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر ولغاية 1945، مع الدكتور عبد الرؤوف سنو، بهدف ربط المراحل التاريخية الحديثة التي تعتبر حلقات متصلة ضمن السلسلة، أوصلت المنطقة اليوم إلى غزو أمريكي، ترتبط جذوره برغبة الغرب المستمرة في تحقيق مصالح قديمة في الشرق، من خلال تحالفات ظاهرها استراتيجي وباطنها امبريالي استعماري .

إذا كان الامبراطور الألماني غيلوم الثاني ومن بعده هتلر نصباً نفسيهما المدافعين عن الإسلام، واقاما علاقاتهما معه على أسس ظاهرها إصلاحية وباطنها استعمارية، أدت إلى هجرة اليهود وقيام دولة إسرائيل، فإن الرئيس الأميركي بوش يلعب الدور نفسه اليوم، لا سيما من ناحية اللعب على وتر الدين وحماية الأقليات وفرض الديمقراطية. وكان التاريخ مرة جديدة يعيد نفسه، وكأن مسرحية «الإسلام والإرهاب، الإسلامي والتعصب»، تستأنف عرضها، ولكن من خلال ديكور الألفية الثالثة، والأسلحة الأكثر حداثة وتطوراً .

**-كيف تحلل العلاقة التي ربطت ألمانيا والإسلام في النصف الثاني من القرن التاسع عشر؟**

كانت ألمانيا من أكثر الدول اهتماماً بعقيدات «المسألة الشرقية»، منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وتحديدًا منذ وصول غيلوم الثاني إلى العرش، وطرحه شعار «تأمين مكان تحت الشمس» لبلاده، مع كل ما حمل هذا الشعار من «زحف نحو الشرق»، ومناهضة الدول الأوروبية الأخرى، فتحول الإسلام منذ ذلك الحين، إلى ركن أساسي في سياسة ألمانيا الخارجية، بعدما أعلنت عن صداقتها للإسلام، ونهجت سياسة إسلامية، وعملت على استخدام نفوذها وعلاقاتها المتشعبة بالدولة العثمانية لضرب المصالح البريطانية في الهند، ومصر وأطراف الجزيرة العربية، كذلك المصالح الفرنسية في شمال أفريقيا وبلاد الشام .

إن السؤال الذي يطرح نفسه: لماذا امتلكت ألمانيا كل هذا النفوذ والتأثير على السلطان العثماني ومحاولة الاستفادة من الإسلام ومن قوته الروحية والسياسية؟

إن هذا يرتبط أساساً بنهوضها الاقتصادي والصناعي والعسكري والثقافي وتنافسها مع الدول الكبرى، وهذا ما جعلها تلتفت إلى قوة الإسلام، وتستخدمها من أجل مصالحها الخاصة، وتحت شعار «الزحف نحو الشرق» الذي رفعه امبراطور ألمانيا، كانت تدخل كل القوى الحاسمة للإمبريالية الألمانية: رجال الصناعة، والرأسمال الألماني، والقيادة السياسية، والقوى العسكرية .

هذه العناصر الرئيسية للإمبريالية الألمانية هي التي جرفت بسمارك من أمامها خلال فترة انتقال ألمانيا من النسق الأوروبي إلى النسق العالمي، الذي عبر عنه الامبراطور بـ «مكان تحت الشمس» .

## -هل تندرج ضمن هذا الاطار، رحلة الامبراطور الالمانى« غليوم الثاني» الى الشرق؟

بالطبع، خصوصاً إذا عرفنا ان أول دعوة المانية رسمية لإستخدام الإسلام المتمثل بالدولة العثمانية في الصراع مع الدول الكبرى، جاءت أثناء رحلة الامبراطور الى بلاد الشام في العام 1898، وإلقائه خطاباً استراتيجياً أمام ضريح السلطان صلاح الدين في دمشق، حين لعب الورقة الإسلامية ضد الدول الكبرى، وخصوصاً بريطانيا، وتحدى فرنسا في إدعائها حماية جميع الكاثوليك في الشرق .

على أن الاهم من ذلك، هو إعلانه عن صداقته للمسلمين في العالم، وفي هذا المعنى، جاء خطابه في طنجة في العام 1905، وعزفه على النخمة الإسلامية وتأكيديه على استقلال المغرب في وجه أطماع فرنسا وإسبانيا، وقيامه عام 1911 بتظاهرة بحرية عند الطرف الأطلسي للمغرب .

إن كل هذه التحركات الدبلوماسية تندرج في سياق سياسة اسلامية لألمانيا قامت على الاستفادة من الإسلام في التنافس الاستعماري. فعندما توصلت ألمانيا في العام 1908 مع فرنسا الى اتفاق حول سياستها الاستعمارية في المغرب، ضربت ألمانيا بشعارات صداقتها للإسلام عرض الحائط .

## -ما هي أبعاد وقوف ألمانيا وراء إعلان السلطان العثماني والمرجعيات الشيعية في العراق الجهاد المقدس، عقب اندلاع الحرب العالمية الأولى؟

على أثر اندلاع الحرب العالمية الأولى، تقدم المستشرق الالمانى أوبنهايم بأفكاره الى الامبراطور حول كيفية استغلال الإسلام و«الجهاد المقدس»، وجعلهما أهم أسلحة ألمانيا على الاطلاق في الصراع ضد دول الوفاق العدي .

بالفعل كانت القيادة الالمانية تدرك أهمية الجهاد المقدس كنوع من التعصب الإسلامي في تجبيش المسلمين في العالم، وجعله الوسيلة القادرة على خدمة أهدافها من الحرب، وليسير جنباً الى جنب مع الجيوش العثمانية في أراضي العدو .

لتحقيق أهدافها السياسية والعسكرية، تأسست في برلين في العام 1915 وكالة أخبار الشرق برئاسة «أوبنهايم»، وافتتحت لها سبعين مركزاً في مدن الدولة العثمانية للتحريض على الجهاد، والإشراف على الدعاية في البلدان الشرقية والإسلامية، وتوزيع المنشورات وإصدار المجلات والنشرات، وأهمها «العالم الإسلامي» و«الجهاد».

بغية جذب المسلمين الى الفريق الأقوى في الحرب، وركزت الدعاية الالمانية على التفوق الالمانى العسكري، وعلى أواصر الصداقة والود التي تجمع ما بين الالمان والمسلمين، وعلى أخوة السلاح بينهما، وعلى التحالف المقدس بينهما .

خاطبت الدعاية الالمانية المسلمين بأسلوب تحريض عنيف مركزة على النهب الذي تعرضت له البلاد الإسلامية في من جراء استعمار الدول الثلاث، بريطانيا، فرنسا، روسيا . وللحصول على استحسان العالم الاسلامي، كانت تتم معاملة الاسرى المسلمين، الذين سبق وحاربوا في جيوش دول الوفاق ووقعوا في أسر القوات الالمانية، معاملة

حسنة، بإشراف ضباط ألمان يلمون باللغات الشرقية. وكان يسمح للأسرى بممارسة شعائرهم الدينية في مسجد شيد خصيصاً لهم .

**-ولكن، كيف تعامل الشارع الإسلامي مع هذه الدعاية المحكمة التي طاولت السياسيين والمثقفين والعامّة على السواء؟**

كان تأثيرها كبيراً، وقد أدت الى تنامي الشعور لدى المسلمين بأن المانيا هي الدولة الوحيدة حليفة الإسلام، التي تعمل على إنقاذه من كبوته، وأضح أمبراطور المانيا في نظر المسلمين حد «الحاج محمد وليم»، الذي يدعو له المصلون بالنصر في مساجد دمشق ومصر .

إن إعجاب عامة المسلمين بسياسة المانيا الإسلامية جعلت بعضهم يتخيل امكانية أسلمة الامبراطور وشعبه والاستقواء بألمانيا بدل الاقتداء بنهضتها. ويتجلى ذلك بوضوح، في رسالة بعث بها إليه إثنان من أنصار الجامعة الإسلامية في مصر يدعوان الامبراطور وشعبه الى الإسلام، وأن تتكون في ألمانيا المسلمة والدولة العثمانية «أمة إسلامية توحد الله ولا تشرك به أحدا»، لقد وصل الأمر بتوزيع رسم لرأس الامبراطور في وسط هلال اسلامي كإشارة الى المكانة التي تتطلع المانيا لاحتلالها بين المسلمين .

**-بعد استسلام المانيا في أعقاب الحرب العالمية الأولى وإنهيار السلطنة العثمانية، كيف تطورت العلاقات العربية - الألمانية، وهل سادها الحذر والترقب لا سيما في أعقاب تشجيع ألمانيا الهجرة اليهودية الى الشرق، وأقول الحلم الإسلامي - الألماني الى الأبد؟**

حتى اندلاع الحرب العالمية، شكلت التحولات الكبرى في السياسة الألمانية، لا سيما تشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين لأسباب تجارية، ووصول هتلر الى السلطة في العام 1933 بتأييد جماهيري صاخب، وانتهاجه سياسة تقوم على توطيد سلطته في الداخل عبر الإعلان عن عدائه لليهود ومقاطعتهم اقتصادياً وصولاً الى طردهم خارج البلاد، واستعادة زعامة المانيا في أوروبا من خلال إحداث انقلاب في النظامين الأوروبي والعالمي. وبدت هذه التحولات بنظر الحركة العربية ذات أهمية كبرى لمستقبل المنطقة العربية، بعدما أصبحت الصهيونية عدواً مشتركاً لكل منهما، واعتقدت الحركة العربية بإمكانية الاستفادة من المانيا للتخلص من السيطرة البريطانية والفرنسية على المنطقة .

حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية إتسمت علاقات المانيا بالحركة العربية بالتحفظ لاعتبارات عدة، وهي تركيز هتلر إهتمامه على أوروبا، واعتقاده، حتى حينه، بإمكانية التحالف مع بريطانيا ودخوله تحالف مع روما عام 1936، الذي كان يتيح لإيطاليا ان تحتل نقاطاً استراتيجية في حوض البحر المتوسط، وتمارس نفوذاً واسعاً على المشرق العربي، باستثناء العراق، الذي كانت المانيا تتطلع اليه لوفرة نفطه .

وقد استطاعت المانيا ان تخلق تأييداً لها في العراق، وسوريا، ومصر، لكن سياستها باتجاه القضية الفلسطينية اتسمت بالتناقض. فهي كانت تعترض على مشروع تقسيم فلسطين لعام 1937 وقيام دولة يهودية هناك، وتقوم في الوقت نفسه بتوجيه الهجرة اليهودية الى فلسطين عبر ما عرف بـ «إتفاق الترانسفير» أو «إتفاق هافارا». وقد

ساهمت المانيا، من خلاله، ومن خلال إضطهادها لليهود، بشكل أو بآخر على صهينة فلسطين .

يقول عالم الاسلاميات الألماني، فريتز شتابت، «إن سياسة هتلر تجاه اليهود ساعدت على إنشاء دولة إسرائيل». ويضيف: «نعم، من غير المؤكد أنه بدون هتلر كان بالإمكان تنفيذ المشروع الصهيوني في فلسطين».

**-كيف تقارن أو تقرأ واقع المنطقة العربية الحالي السياسي والثقافي في ضوء الغزو الأمريكي؟ وهل هنالك نقاط تشابه وتقاطع بين أمس واليوم؟**

عندما طالب قيصر روسيا في القرن التاسع عشر بتقسيم الدولة العثمانية، كونها أصبحت رجل أوروبا المريض»، عارضته في ذلك كل من بريطانيا وفرنسا، لأن القضاء عليها برأيهما، يؤدي الى اندلاع حرب أوروبية حول ممتلكاتها، والى خسارتها سوقا «تجاريا» ومركزاً إقتصادياً مهماً، لذلك، فضلت بريطانيا وفرنسا الضغط على الدولة العثمانية من أجل القيام بإصلاحات داخلية وتحديث قوانينها عبر اقتباسها نظم الغرب ومعارفهم، وديموقراطية مؤسساتهم، لعل ذلك، يعطيها جرعة من الحياة، تبقى عليها سوقا تبعية مفتوحة لمنتجاته، ولاستثماراته المالية .

من جهتها، رأت الدولة العثمانية أن الإصلاح قد يخفف عنها الضغوط الخارجية، ويوقف تاليا التدخل في شؤونها الداخلية، فبدأت في أواخر ثلاثينيات القرن التاسع عشر حقبة من الإصلاحات، أطلق عليها رسمياً تسمية «التنظيمات العثمانية»، التي تميزت بأنها لم تستمد مصدرها من الشريعة الاسلامية، بل اعتمدت قوانين وضعية مستوحاة من التجربة الاوروبية .

إذاً، كان المشهد السياسي حتى الحرب العالمية الأولى يتمثل في التالي :

دولة عثمانية ممثلة للإسلام في العالم، في صدام متواصل مع الغرب الكاره لها دينياً وحضارياً، تحاول الوقوف على رجلها من خلال إصلاحات تضخها إليها أوروبا المسيحية .

على الرغم من التغييرات الطارئة في الخرائط والنظم السياسية والعلاقات الدولية منذ ذلك الحين، فإن منطلقات الأحداث التي تدور اليوم وأهدافها ومحركاتها تتشابه الى حد بعيد مع ما دار في القرون المنصرمة .

علام يدل هذا؟ بكل بساطته، على أن الإسلام المتمثل بالدولة العثمانية، والذي كان مستهدفاً في العصر الحديث، مجتمعاً، وسياسة، وإقتصاداً، وحصارة لا يزال هو نفسه المستهدف في القرن الحادي والعشرين، مع فارق أن مركز القوة قد تحول من أوروبا الى الولايات المتحدة، كند جديد للإسلام، الذي لم يعد يتمثل بدولة واحدة، كما كان في القرن التاسع عشر (الدولة العثمانية)، وإنما بعدد كبير من الدول الإسلامية والعربية .

أذكر في هذا الإطار، بما حدث أثناء تطبيق الدولة العثمانية للإصلاحات المفروضة عليها، إذ لم تتوان الدول الأوروبية ودوائرها السياسية والتبشيرية التشهير بالعثمانيين، ووصفهم بـ «برابرة، همجيين، سفاحين، أعداء الحضارة والإنسانية، متعصبين».. ولا

تختلف النعوت بحق العرب والمسلمين اليوم كثيراً في الخطابين الإعلامي والسياسي الاميركيين عما كانت عليه في الماضي: «سفاحين، إرهابيين، متطرفين، متعصبين».

**-بعد هذه المقارنة بين الواقع العربي في أمس وفي الحاضر، كيف تحدد سبل الخروج من مقولة «التاريخ يعيد نفسه، مع فارق وحيد هو تبدل الاسماء»؟**

نحن العرب في هذه البقعة من العالم، لسنا نسيج وحدنا، صحيح أننا أبناء حضارة عربية - إسلامية متجذرة لها مكوناتها وخصائصها، لكننا لا نخرج عن قوانين البشر وطبائعهم، ولا عن قوانين العقد الناظم لاجتماعهم الثقافي .

إن صلاح أمرنا في مختلف مراحل تاريخنا، هو نتاج مبادرتنا الداخلية وثمره تبدل أحوالنا .

نحن، الشعوب العربية، نريد الإصلاح الديموقراطي قبل حكامنا وجلاديننا، ونحن وحدنا الأعراف بخصوصيات مجتمعا وطبيعة مشكلاتنا، ومواضع النقص أو القصور في مؤسساتنا ونظمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية، لا بل الدينية، فليتوقف الغرب، إذا، والولايات المتحدة تحديداً عن دعم الفاسد من حكامنا، ونحن كفيلون بتحقيق الإصلاح المنشود، ليس إرضاء للغرب، بل لإن تطورنا ودخولنا العصر يحتم علينا تنفيذ الإصلاحات والتحسينات .